أهمية القيادة في بناء الجماعات

بقلم : الدكتور جاجان جمعة محمد الخالدي



يمثل موضوع القيادة أحد المجالات الأساسية التي نالت الكثير من العناية من الباحثين في مجال السلوك الإنساني . ومن هذا المنطلق تعددت المداخل العامة لدراسة القيادة، وأكد علماء النفس الاجتماعي أهمية القيادة والدور الكبير الذي تلعبه في بناء الجماعات المختلفة، كما يؤكدون ما للقائد من أهمية بالغة في تماسك تركيب الجماعة، وجو الجماعة، وأهدافها، وأيديولوجيتها، ومناشطها[١] . وللقيادة دور اجتماعي رئيسي يقوم به فرد (قائد) أثناء تفاعله مع غيره من أفراد الجماعة (الأتباع)، ويتسم هذا الدور بأن من يقوم به يكون له القوة والقدرة على التأثير في الآخرين وتوجيه سلوكهم في سبيل بلوغ هدف الجماعة[٢] .

... وتماسك القيادة

خالد بن الوليد



وجدير بالذكر أن العديد من الباحثين تناولوا موضوع القيادة من جانب الصفات الشخصية الواجب توافرها في القادة، ومازال هذا الاهتمام مستمراً إلى عصرنا هذا إلى درجة ما، ويعبر مثل هذا الاتجاه عن المبدأ الخاص بأن الرجال يخلقون المواقف، أو ما يعرف بمفهوم الرجل العظيم **The great man** . ويؤكد أصحاب نظرية الرجل العظيم على أن بعض الرجال يبرزون في المجتمع لما يتسمون به من قدرات ومواهب عظيمة وخصائص وعبقرية غير عادية تجعل منهم قادة أياً كانت المواقف الاجتماعية التي يواجهونها . ومن أوائل الدعاة لهذه النظرية فرانسيس جالتون **Ga lton**(٣) .

وهكذا تتعدد نظريات القيادة بتعدد البحث في سيكولوجية القيادة، ومن بين النظريات التي لاقت قبولاً من الباحثين وحظيت بدعم مزيد من الدراسات نظرية السمات **Trait Theory**، إذ ركزت البحوث المبكرة عن القيادة على دراسة شخصية القائد وسمات القائد وخصائصه الجسدية والعقلية والانفعالية والاجتماعية، وتقدم البحث العلمي حول سمات القادة (وخاصة سمات القائد الناجح) .

ومعلوم أن الباحثين استخدموا مناهج عدة في دراسة الشخصية وتحليل سماتها فهناك من استخدم المنهج التحليلي واعتمدوا المنحى الفردي وآخرون استخدموا المنهج التاريخي واتبعوا دراسة الحالة أو تتبع السيرة الذاتية . وخير شاهد على ذلك تلك الدراسات التحليلية التي أجراها ابراهام ماسلو عالم النفس المشهور خلال تناوله للسيرة الذاتية لشخصيات عالمية مشهورة مثل مهاتما غاندي ومارتن لوثر ومكسيم جوركي وانتهى من تلك الدراسات إلى صياغة نظرية تعرف بنظرية الحاجات .

واليوم نحاول نحن من خلال هذا ال جهد المتواضع تسليط الضوء على شخصية عربية مسلمة خلدها التاريخ، وتميز بقيادته وانتصاراته فكان حقاً أنموذجاً للبطولة ورمزاً استحق عن جدارة لقب البطل، إنه القائد العربي خالد بن الوليد .

فالدراسة الحالية امتداد لجهود الباحث في دراسة الشخصية باستخدام المنهج التحليلي من خلال المحاولة في تحليل النصوص التاريخية والوقوف على ما ورد في كتب التاريخ عن القائد البطل خالد بن الوليد لبيان أبرز السمات المميزة لشخصية هذا القائد العربي وانسجام تلك السمات مع ما ورد في البحوث والدراسات النفسية عن السمات المطلوبة في شخصية القائد .

لاسيما وأنه ورد في الانسيكلوبيديا الإسلامية عن خالد بن الوليد أنه قائد لامع ، موهوب القيادة، بفضله انتصر المسلمون عدة انتصارات، أعطاه محمد ﷺ لقب "سيف الله" كما وصفه المؤرخ اليوناني **Muller** في كتابه **Der Islam** بأنه شبيه نابليون، لم يأبه لشيء إلا للحرب، ولم يـرد أن يتعلم شيئاً سوى الحرب(٤) .

وفي ضوء ما تقدم، فإن البحث الحالي يرمي إلى الإجابة عن السؤالين الآتيين :

١ — ما هي السمات المميزة لشخصية القائد العربي خالد بن الوليدوالتي كان لها دور في نجاحه ؟

٢ — من أين جاءت تلك السمات ؟ وبعبارة أخرى ما هي العوامل المؤدية إلى ظهور تلك السمات في شخصية القائد العربي خالد بن الوليد ؟

وقبل أن نبدأ في عرض بعض النصوص الواردة في كتب التاريخ والتي تتحدث عن شخصية خالد بن الوليد لابد من الإشارة إلى أن الشخصية عبارة عن "تنظيم ديناميكي لمختلف سمات الفرد . والسمة هي الصفة الجسمية أو العقلية أو الاجتماعية أو الانفعالية الفطرية أو المكتسبة التي يتميز بها الفرد وتعبر عن استعداد ثابت نسبياً لنوع من السلوك .

والحقيقة عندما نحاول وصف شخصية فرد ما فإننا في أغلب الأحيان نتجه إلى تعيين أكثر صفاته تمييزاً، أي أهم خاصية عنده، وكثيراً ما تكون هذه السمات وقفاً على نوع المعاملة التي يلقاها الفرد من الآخرين علاوة على كونها ناتج ذاتي لحاصل التفاعل بين الخصائص التي يرثها من الأجيال السابقة(٥) .

نظريات الشخصية والقيادة

قدم كثير من المفكرين في ميدان علم النفس نظريات تخص الشخصية، ويمكن إيجازها في الآتي :

١ ـ النظريات النفسية الدينامية للشخصية :

ومن أشهر المؤيدين للمفاهيم النفسية الدينامية سيجموند فرويد وكارل يونج وألفرد إدلو وكارن هورنيوهاري ستاك سوليفان واربك اركسون . . .

٢ ـ النظريات الظاهراتية الشخصية :

ويركز أصحاب النظريات الظاهراتية في محاولة فهم "الذوات" ووجهات نظرها الفريدة في الحياة، وتعد نظرية كارل روجرز في الذات نموذجاً لهذه النظريات .

٣ – النظريات الاستعدادية في الشخصية :

وهنا نشير إلى نظرية السمات لريموند كات ل ونظرية الأنماط التي قدمها وليم شيلدون . وتعتمد هذه النظريات على وضع الناس في فئات تبعاً للأنماط أو السمات التي يحملونها .

٤ – النظرية السلوكية للشخصية :

وتعد نظرية ب. ف. سكنر نموذجاً للسلوكية المتطرفة، وكذلك فإن اتجاه ولتر ميشيل في التعلم الاجتماعي المعرفي يعد نموذجاً آخر في النظريات السلوكية(٦) .

أما في مجال القيادة فتتعدد نظريات القيادة بتعدد البحث في سيكولوجية القيادة، ومن بين النظريات السائدة :

١ – نظرية السمات Trait theory

تؤكد هذه النظرية على أن القائد الناجح يتميز بجملة سمات شخصية، وقد أسفرت نتائج البحوث والدراسات عن قوائم من سمات القائد الجيد منها السمات الجسمية والعقلية المعرفية والاجتماعية والانفعالية وأخرى عامة .

٢ – النظرية الوظيفية Functional theory

ويهتم أصحاب هذه النظرية بكيفية توزيع الوظائف القيادة في الجماعة، وعليه ينظر للقيادة على أنها وظيفة تنظيمية .

٣ – النظرية الموقفية Situational Theory

وتؤكد هذه النظرية على أن القائد لا يمكن أن يظهر إلا إذا تهيأت الظروف في المواقف الاجتماعية لاستخدام إمكانياته القيادية .

٤ – النظرية التفاعلية Interactional Theory

وتركز هذه النظرية على تفاعل القائد مع الأتباع وأن القيادة عملية تفاعل اجتماعي .

٥ – نظرية الرجل العظيم Great Man Theory

ويؤكد أصحاب هذه النظرية على أن بعض الرجال العظام يبرزون في المجتمع لما يتسمون به من قدرات ومواهب عظيمة وخصائص وعبقرية، تجعل منهم قادة[٧] .

السمات المميزة لشخصية خالد بن الوليد

لقد أسفرت نتائج البحوث والدراسات عن قوائم من سمات القائد الجيد، سنحاول أن نورد أهمها ونقف عند تلك السمات ومدى توافرها في شخصية البطل العربي خالد بن الوليد .

أولاً : السمات الجسمية :

نالت العوامل والصفات الجسمية قسطاً من الدراسة في موضوع القيادة، فصفة الطول والوزن كانت من بين الصفات التي درسها ستوجديل Stogdill في دراسته المفصلة عن القيادة[٨] وتشير نتائج الدراسات إلى أن القادة أميل إلى أن يكونوا أطول من الأتباع، وأثقل وزناً منهم خصوصاً حين يشترط في القائد أن يكون أقوى من أعضاء الجماعة وحين يكون هدف الجماعة هو القتال مع

غيرها، وهنا أيضاً نجد أن القادة أميل إلى أن يكونوا الأكثر حيوية وأوفر نشاطاً من الأتباع[٩] .

وإذا ما عدنا إلى النصوص التاريخية التي تناولت شخصية القائد العربي خالد بن الوليد فإننا نجد العديد من الأدلة التي تؤكد تمتع هذا القائد بالعديد من الصفات الجسمية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نقرأ :

"ذكر ابن أبي شيبة عن وكيع، عن إسماعيل، عن قيس قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما صبرت في يدي إلا صفيحة يمانية"[١٠] . وهذا النص يشير بوضوح إلى القدرات الجسمية والخصائص القوية التي انفرد بها، ولعل ما يوضح لنا قوته الجسمية واستعداداته منذ الطفولة "قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلْبته عمر وكسره ساقه في هذه المصارعة"[١١] .

وقد ورد أنه كان طويلاً بائن الطول وأنه كان عظيم الجسم والهامة ومهيب الطلعة يميل إلى البياض[١٢] . وربما منحته تلك الصفات سمة القيادة والفروسية "فكانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر، إذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه، ورأيناه على قيادة الفرسان – فرسان قريش – وفي وقعة أحد التي أحاط فيها برماة المسلين من ورائهم ؛ فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره"[١٣] .

وتعود الصفات الجسمية والقدرة البدنية العالية إلى أن خالد قد تعلم في صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة "وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمداً في البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد فقد جاء

في بعض الأحاديث أن خالداُكان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الأعراب ويشتهونه، وهو أغنى إنسان في مكة[١٤] .

وهكذا نجد أن خالد بن الوليد امتلك من السمات الجسمية ما أعانه في أدواره القيادية ووضعه في مقدمة الفرسان "وقد ولي أعنة الخيل وشهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، وأسلم قبل فتح مكة مع أبي العاص سنة ٧هـ وكان قائداً عظيماً سيره أبو بكر في خلافته إلى العراق سنة ١٢هـ ففتح الحيــرة وقسماً كبيراً من العــراق وتـحول إلى بلاد الشــام فصـار أميراً بها"[١٥] .

ومما يشير أيضاً إلى سماته الجسمية أن "قريش كانت تعتمد عليه في غاراتها وحروبها، وتعتز برجولته إذا ما قورنت الرجال فيما بينها، فكان خالد سنداً لها وعضداً وحامياً، تضرب له القبة، ويعهد إليه بالأعنة . أما القبة فقد كانت قريش تضربها لتجمع ما تجهز به جيشها من أموال ومؤن وأعتدة، وأما الأعنة فقد كانت تعهد بها إلى خالد بصفته مقدماًعلى فرسانها ورجالاتها كافة في المعارك والحروب"[١٦] .

ثانياً : السمات العقلية المعرفية :

أجري العديد من الدراسات للربط بين القيادة والذكاء، وتوافق أغلب هذه الدراسات على أن القادة أعلى مستوىً في عنصر الذكاء، ومن الطبيعي أن نجد أنه إذا كانت الجماعة تعمل في مجال تظهر فيه الحاجة إلى حل المشاكل فإن العناصر التي تساعد على هذه المشاكل غالباً ما يكون المجال مفتوحاً أمام المناصب القيادية[١٧] . وهكذا نجد أن القادة أكثر تفوقاً من ناحية الذكاء العام

من الأتباع، وكذلك لوحظ أن القائد يميل إلى أن يكون أغنى ثقافة وأثرى معرفة وأوسع أفقاً وأبعد نظراً وأنفذ بصيرة وأقدر على التنبؤ بالمفاجآت والاستعداد لها وأحسن تصرفاً وأعلى مستوىً في الإدراك والتفكير، وأفضل من حيث الطلاقة اللفظية وأحكم في الحكم على الأشياء وأسرع في اتخاذ القرارات"[١٨] .

وبالعودة إلى الأحكام الواردة في كتب التاريخ نجد أن القائد العربي تميز بامتلاكه سمات عقلية ومعرفية في شخصيته، تلك السمات التي منحت هذا الرجل مؤهلات القيادة، ويمكن أن نوجز بعضاً منها في الآتي :

١ – القدرة على التعبير الكلامي (الطلاقة اللفظية) : تبين من البحث الذي قام به ستوجديل أن القدرة على الاتصال الشفهي تؤخذ في الاعتبار كصفة من الصفات القيادية، ومن هنا توصل الباحثون إلى أن القدرة على التحدث خاصة عندما تتطلب المواقف ذلك، تعبر عن أحد المتغيرات الهامة للقيادة، وقد أكدت الدراسات الأخرى هذا الافتراض"[١٩] .

والآن في دراستنا لشخصية القائد العربي خالد بن الوليد نجد هذه السمة بوضوح في شخصيته القيادية، وتتمثل في إمكانياته قي الخطابة – فعلى سبيل المثال لا الحصر – عندما تهيب المسلمون طروق المفازة من العراق إلى الشام خاطبهم قائلاً : "لا يختلفن هديكم، ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسنة، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له"[٢٠] . فتحمس أصحابه وقالوا : أنت رجل قد جمع الله لك الخير، فشأنك[٢١] .

وكما تميز بقدرته على إقناع الآخرين والتأثير في الأتباع وإثارة الحماس لديهم مما يدخل في القدرة على التعبئة . ويتضح ذلك بصورة جلية في دعوته إلى التعبئة أثناء مواجهة الروم، إذ قال : "ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم، فالله الله ! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينتقصه منه إن دان لغيره من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه إن دانوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ! ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيأوا . وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاون الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى تتأمروا كلكم، ودعوني إليكم اليوم .

فأمروه، وأصبح خالد أمير المسلمين في ذلك اليوم، وخرجت الروم في تعبئة لم ير الراءون مثلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ذلك"(٢٢) .

وهناك العديد من النصوص التاريخية التي تشير إلى إمكانية الحوار لدى خالد بن الوليد، تلك الصفة التي يحتاجها القائد في بعض المواقف نذكر منها : ما روى أبو مخنف، عن أبي المثنى الوليد بن القطامي، وهو الشرقي بن القطامي الكلبي : "إن عبد المسيح استقبل خالداً، وكان كبير السن، فقال له خالد : من أين أقصي أثرك يا شيخ ؟ فقال : من ظهر أبي . قال فمن أين خرجت ؟ قال من بطن أمي . قال ويحك في أي شيء أنت ! قال : في ثيابي، قال : ويحك على أي شيء أنت ؟ قال : على الأرض، قال : أتعقل ؟ قال : نعم، وأقيد . قال : ويحك ! إنما أكلمك بكلام الناس . قال : وأنا إنما أجيبك جواب الناس . قال : أسلم أنت أم حرب ؟ قال : بل سلم، قال :

فما هذه الحصون ؟ قال بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم . ثم تذاكرا الصلح فاصطلحا على مائة ألف يؤدونها في كل سنة"[٢٣] .

٢ – حسن التصرف : إن من أبرز السمات التي تميزت بها شخصية خالد بن الوليد هي سمة التأمل وتقدير الموقف، فكان يأخذ بنظر الاعتبار الروح المعنوية لأصحابه، ويدرس حالاتهم النفسية، والنص الآتي يشير إلى ذلك بوضوح، إذ :

أقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلاً، فلم يفطنوا له حتى وطئته المطي بأخفافها، فكبر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعاً، فجزع لذلك المسلمون وقالوا سيدان من سادات المسلمين، وفارسان من فرسانهم !

ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع، فآثر ألا يواجه بهم عدوهم حتى تطمئن نفوسهم، فسأل عدياً : ما الرأي ؟ فقال : الرأي أن إليّ فتقيم عندي أياماً في طيء، حتى أبعث إلى كل قبائلها، فأجمع لك منهم أكثر مما معك، ثم أصحبك إلى عدوك"[٢٤] .

ومما يؤكد حسن تصرفه أيضاً وسعة أفقه اعتماده على الدليل والاستعانة برأي الآخرين، فلم يكن متسلطاً برأيه، وخير شاهد على ذلك ما يروى عن دليلـــه، إذ كان له دليل يقـال له رافـع بن عميـر الطائي ساعـده في الموقف الآتي :

"وكان خالد لما ركب المفازة عمد إلى الرواحل فأرواها من الماء، ثم قطع مشافرها وأجرها لئلا تجتر فتعطش، ثم استكثر من الماء وحمله معه، فنفد في

طريقه، فجعل ينحر تلك الرواحل راحلة راحلة ويشرب وأصحابه الماء من أكراشها"[٢٥].

٣ – **القدرة على اتخاذ القرار** : وتميزت شخصية خالد بن الوليد بسمة معرفية أخرى هي القدرة على اتخاذ القرار وعقد المعاهدات، ومن الأمثلة في هذا الجانب والذي يوضح لنا أيضاً القدرة على الكتابة حين دعا خالد بدواة وقرطاس فكتب :

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها : أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية"[٢٦].

٤ – **سمة المرونة في التفكير** : بالإضافة إلى ما تميز به خالد بن الوليد من قوة ورباطة جأش فإنه في الوقت نفسه كان رقيقاً وسمحاً ولم يكن متصلباً في فكره، بل على العكس اتسم بالمرونة والقدرة على التغير في الرأي والاتجاه، ومما يؤكد ذلك ما رواه "العوام بن حوشب، عن سلمة بن كهيل، عن علقمة، عن خالد بن الوليد قال : كان بيني وبين عمار كلام، فأغلظت له، فشكاني إلى رسول الله ﷺ ، فقال : من عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله، فخرجت، فما شيء أحب إلي من رضاء عمار، فلقيته فرضي"[٢٧].

٥ – **سمة الذكاء ونفاذ البصيرة** : لقد عرف خالد بن الوليد بشجاعته وجرأته وكذلك بأحكامه وخططه التي تنم عن الذكاء العالي والقدرة على التنبؤ، ويتضح ذلك فيما صنعه عندما تولى قيادة الجيش الإسلامي بعد مقتل

ابن رواحة إذ أقدم على الارتداد المأمون "وهو أصعب من النصر في بعض المآزق، لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين، إلا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافئ الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه، وأول شيء ينبغي أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع في روع عدوه أنه لا ينوي الارتداد بل ينوي الهجوم أو يقصد إلى الحيلة، فصمد في الميدان حتى المساء، ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل، فنقل الميمنة إلى الميسرة ونقل الميسرة إلى الميمنة وجعل الساقة في موضع المقدمة والمقدمة في موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح"(٢٨) .

ويعتبر خالد بن الوليد أول قائد أدخل نظام التعبئة في الجيش الإسلامي طبقاً للأساليب التي كانت متبعة في الجيش الرومي، فقد خرج يوم اليرموك في تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ذلك"(٢٩) .

كما يشير النص الآتي أيضاً إلى القدرة العقلية العالية وإمكانية التخطيط الذي تميز به البطل العربي خالد بن الوليد فأصبح قائداً تاريخياً ونموذجاً للقيادي الذي يصنع الخطط : "كان يصنع الخطة في موضعها ساعة الحاجة إليها، فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحياناً بغير كمين، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعي والأحوال"(٣٠) .

ثالثاً : سمات اجتماعية :

إن تأثير خالد بن الوليد في الآخرين كان واضحاً ويبدو لنا ذلك بصورة جلية أنه :

"عندما استشهد ابن رواحة، وأخذ ثابت بن أقرم من بني العجلان اللواء في تلك اللحظة ونادى في أصحابه : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم" قالوا : "أنت" قال : "لا . . ما أنا بفاعل" . . فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد، فإذا هو يتولى القيادة في حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع في ذلك الحين"(٣١) .

إن اتفاق الجميع على خالد بن الوليد قائداً لهم أكبر دليل على مكانة خالد بينهم وقوة تأثيره من خلال ما يملكه من سمات اجتماعية تؤهله للقيادة، "فالقيادة تنبع من داخل الجماعةوتظهر تلقائياً غالباً، وتكون مسبوقة بعملية تنافس عليها من قبل عدد من أعضاء الجماعة، والتفاعل الدينامي بين الأفراد شرط أساسي لظهور القيادة، وسلطة القائد يخلعها عليه تلقائياً أفراد الجماعة الذين يختارونه كقائد ويصبحون أتباعاً له"(٣٢) .

وعندما نتحدث عن السمات الاجتماعية لابد أن نأخذ بنظر الاعتبار مسألة الاتصال، ذلك لأن إجادة التواصل مع القيادة الأعلى دليل على تمتع القائد بمؤهلات وكفاءة اجتماعية، ويتبين لنا ذلك من إمكانيات خالد بن الوليد وإجادته التواصل مع القيادة الأعلى المتمثلة في شخص الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه سمة بارزة وهي سمة ضرورية للقائد الناجح الذي يعرف كيف يتلقى التعليمات وينقل الصورة عن مجريات الأحداث من وإلى القيادة، فالقائد الناجح لا يحتاج فقط إلى السيطرة والقدرة على توجيه أتباعه بل إنه بحاجة إلى إمكانية التواصل السليم مع مرءوسيه، وهذا واضح في التزام القائد العربي خالد بن الوليدبالتعليمات والأوامر الصادرة إليه وتنفيذها بصورة سليمة ودقيقة وفي نفس الوقت إعطاؤه للصورة، ويعبر ذلك أيضاً عن الالتزام والامتثال ويمكننا ملاحظة هذه الجوانب في كتاب خالد إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبي رسول الله، من خالد بن الوليد،

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإن أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد يا رسول الله : فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام، وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم.

وإني قدمت إليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركباناً : يا بني الحارث أسلموا تسلموا . فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلي رسول الله، والسلام عليك يا رسول الله"(٣٣) .

رابعاً : سمات خلقية :

بالإضافة إلى السمات الجسمية والعقلية والاجتماعية التي تميز بها القائد العربي خالد بن الوليد عن غيره من القادة، فإنه كذلك تميز في سماته الخلقية، تلك السمات التي تعبر عن رفعة وسمو المبادئ التي حملها هذا البطل التاريخي فكان بذلك نموذجاً رائعاً في القيادة، ولعل ذلك أمر واضح وبإمكان أي باحث أن يستدل عليه في العديد من المراجع والأدبيات التي تناولت شخصية خالد بن الوليد ومآثره التاريخية، ونذكر منها على سبيل المثال كتاب خالد لأهل الحيرة وما تضمنه من جوانب إنسانية تشير بوضوح إلى السمات الخلقية لهذا القائد العظيم والتي اكتسبها من مبادئ الإسلام، إذ ورد في كتابه لأهل الحيرة :

"وجعلت لهم : أيما شيخ ضعف عن العمل، أو اصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله . ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم . وأي عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير الوكس ولا تعجيل، ودفع ثمنه إلى صاحبه"[٣٤] .

خامساً : سمات انفعالية :

تؤكد الدراسات على أن القادة يتصفون بالثبات الانفعالي والنضج الانفعالي وقوة الإرادة والثقة بالنفس ومعرفة النفس وضبط النفس، ومن الدراسات التي أكدت الفرضية القائلة بأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين القيادة والثقة بالنفس دراسة دريك عام ١٩٤٤ التي أظهرت أن هناك درجة عالية من الارتباط بين القيادة والثقة بالنفس[٣٥] .

وإذا ما رجعنا إلى قيادة خالد بن الوليد نرى سمة الثبات وقوة الإرادة التي تميزت بها شخصية هذا البطل العربي بوضوح، وكيف لا وقد شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة، فأبلى فيها، وبعثه رسول الله ﷺ إلى العزى وكان بيتاً عظيماً لقريش وكنانة ومضر تبجله فهدمها وجعل يقول :

ياعز كفرانك اليوم لاسبحانك   إني رأيت الله قد أهانك

ولم يزل من حين أسلم يولّيه رسول الله ﷺ أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب[٣٦] .

كما أن سلوك خالد بن الوليد أثناء الشدائد وفي الأزمات والمواقف الصعبة أثناء المعارك يدل بوضوح على ضبط النفس، تلك السمة التي تعد ضرورية للقائد الناجح لأنها تعينه على التصرف السليم في كل خطوة وتحت أي موقف يواجهه، والنص الآتي يوضح لنا ذلك :

"كان يعتمد على قوة الإيمان وهمة الأمل، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفي أثناء القتال، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتدبير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذي هو ضرب من العمل، فإذا قال : "إن الصبر عز وإن الفشل عجز وإن الصبر مع النصر فليس هي أصداء تمر بالهواء ولكنها هي العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمع وجنان"[٣٧] .

ولعل ثقته العالية بنفسه وقوة إرادته سمات كانت وراء تفوقه منذ بدايته، ولهذا كانت إليه القبة والأعنة في الجاهلية، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان يكون [المقدم] على خيول قريش في الحروب"[٣٨] .

كما أن تصرف خالد في المعركة أثناء استلامه لأمر عزله عن الإمارة العامة على جند الشام والقتال على أشد ما يكون بين المسلمين والروم، ذلك التصرف الذي انتهى بالمعركة إلى نصر المسلمين نصراً مؤزراً يدل على أن هذا القائد البطل قد منح من الخصائص النفسية والقوى المعنوية قدراً لا يقدر في الحياة إلا لأفذاذ العباقرة الموهوبين، فأي قوة نفسية هذه التي مكنت خالداً من ضبط أعصابه بعد أن عرف أنه معزول عن الإمارة ومؤمر عليه بعد أن كان أميراً ليس فوقه أمير، والنصر بين يديه لو شاء لأدار به وجه التاريخ ؟! إنها قوة الإيمان وقوة العقيدة المسلمة التي لا تدع في قلب صاحبها حظاً لغير الإخلاص"[٣٩] .

سادساً : سمات عامة :

وتشير الأدبيات التي اهتمت بموضوع القيادة إلى أن القائد الناجح يتميز بجملة صفات عامة، منها حسن المظهر المعقول، والمحافظة على الوقت، ومعرفة العمل والإلمام به والافتخار به، والأمانة وحسن السمعة، والتمتع بعادات شخصية حسنة، والتمسك بالقيم الروحية والإنسانية والمعايير الاجتماعية والتواضع(٤٠).

وقارئ التاريخ يلاحظ أن هذه الصفات كلها اجتمعت في شخص البطل خالد بن الوليد، ومنحته سمة القيادة ومما يؤكد ذلك موقف النبي ﷺ من خالد ويتجلى ذلك فيما رواه حيان بن أبي جبلة : "عن عمرو بن العاص، قال : ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أمراً في حربه منذ أسلمنا"(٤١).

وإن منحه لقب سيف الله في وقت مبكر ومن قِبَل النبي ﷺ لدليل على امتلاكه سمات قيادية لم تكن متوفرة في غيره من الصحابة الكرام، وقد صحب خالد النبي ثلاث سنوات، وعهد إليه النبي في كثير من الأعمال الصغيرة وأشركه في بعض الأعمال الكبيرة : ومنها غزوة مؤته وغزوة حنين وسرية بني جذيمة .

إن معرفة النبي ﷺ بإمكانات القائد خالد بن الوليد وما تميز به من سمات هو الذي دفع النبي الكريم إلى منح خالد لقب (سيف الله) واستحق هذا اللقب الذي لا يعلوه لقب في الإسلام، وعرف النبي قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام . وهي الأعمال الجسام التي من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام(٤٢).

كما أن تقدير النبي ﷺ خالدا بن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانة أو لما يرجى من قومه الأقوياء بني مخزوم، فإنه عليه السلام لم يجامله في وصفه

الذي طابقته حوادث الأيام، بل كان تقديره مبنياً على معرفته بخصائص خالد وسماته القيادية، وكيف لا والنبي لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى، فكان يعرف حقاً أن شروط القيادة متوفرة في شخصية البطل خالد بن الوليد .

ويتضح لنا عزم خالد بن الوليد وإصراره على النصر وقوة إيمانه في إنذاره للذين نجوا من جيش ميناس وفروا نحو قنسرين ليعتصموا بها، فأنذرهم خالد قائلاً لهم : "والله لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا"(٤٣) .

ويبقى السؤال من أين جاءت هذه السمات ؟ والإجابة على مثل هذا السؤال يتطلب تتبع سيرة حياة القائد التاريخي والوقوف على أبرز العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته، وذلك ليس بالأمر الصعب، لاسيما وأن كتب التاريخ زودتنا بالكثير من المعلومات التي تتعلق بالبيئة التي عاش فيها والأحداث التي عاصرها .

وإذا كانت الأدبيات السيكولوجية تشير إلى أن الشخصية حصيلة أو نتاج لتفاعل العوامل الوراثية مع العوامل البيئية، وبالتالي فإن نمط الشخصية والسمات التي تحملها تتوقف إلى حد بعيد على تلك العوامل وتفاعلها، وفي بحثنا الحالي نجد أن العديد من العوامل الإيجابية توافرت في بيئة خالد بن الوليد وأدت إلى تكوين ملامح البطولة في شخصيته، وإذا توقفنا عند أثر العوامل الأسرية والبيئية في نمو الشخصية وتطورها نلاحظ أن نشأة خالد بن الوليد كانت في أعرق البيوت وأعلاها وأشرفها وأغناها وكل ذلك كان له دور في تكوين الصفات التي تميز بها . فكان جده المغيرة بن عبد الله الذي كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينسب إليه فيسمى المغيري، وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى، وكان عمه هشام قائد بني مخزوم في حرب الفجار، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام، ولم تقم سوقاً بمكة ثلاثاً لحزنها عليه، وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في

زمانه، له بيت للضيافة يأوي إليه من يشاء بغير استئذان، وكان عمه أبو حنيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة كما أشار النبي ﷺ قبل الدعوة الإسلامية(٤٤) .

ومن هنا فإن نشوء خالد بن الوليد في أسرة متميزة في عطائها وكرمهاوشجاعتها وهيبتها كان له تأثير في نشوء وارتقاء شخصية البطل الخالد وامتلاكه السمات الفريدة التي أصبحت دعائم القوة في شخصيته القيادية .

وبعبارة أخرى، فإن الأسباب المؤدية إلى ظهور السمات التي سبق ذكرها والتي جعلت من شخصية خالد بن الوليد ومآثره نموذجاً للقيادة في التاريخ، تكمن في العوامل الوراثية والبيئية، فأخذ الذكاء بالوراثة من أبويه وتعلم الزعامة من التقليد فقد كان أبوه الرأس بين الرءوس والزعيم بين الزعماء وكانت له في بعض نواحي خُلقه وعقله لمحات من تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك في عبقرية ولده العظيم . وكان أغنى أبناء زمانه في صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض، والخدم والجواري والصيد، وسمي من أجل ذلك بالوحيد، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش، ولكبريائه في جوده أو لجوده في كبريائه كان ينهي أن توقد نار غير ناره في منى لإطعام الحجيج(٤٥) .

ومن هنا لم يعرف خالد بن الوليد الحاجة أو العوز، بل استمر طول حياته يبحث في سلوكه عن القيم الروحية، فكان قائداً نزيهاً، بعيداً عن الكسب المادي، إذ روى جويريه : "عن نافع قال : لما مات خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغلامه، فقال عمر : رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظنناه به"(٤٦) .

وكذلك فإن الخبرات التي اكتسبها في صباه وفتوته كان لها دور في منح خالد بن الوليد القدرة على القيادة، وتلك القدرة تجسدت بشكل واضح في

مبادرته لأخذ الراية وقيادته لصفوف المسلمين عند غياب القائد، فعندما "استشهد أمراء رسول الله ﷺ الثلاثة : مولاه زيد، وابن عمه جعفر ذو الجناحين، وابن رواحة، وبقي الجيش بلا أمير، فتأمر عليهم في الحال خالد وأخذ الراية وحمل على العدو فكان النصر، وسماه النبي ﷺ سيف الله، فقال : "إن خالداً سيف سله الله على المشركين"(٤٧) .

استنتاج وتعليق :

حظي منهج الدراسة الفردية باهتمام كثير من علماء النفس منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن، ورغم اختفاء مصطلح الدراسة الفردية مدة تزيد على عشرين عاماً إلا أنه عاد للظهور مرة أخرى وبقوة، بل إن قيمته العلمية قد زادت ويشير بيرفن Pervin ١٩٨٥ إلى أنه أصبح طوق النجاة لكثير من الباحثين مهما تباينت انتماءاتهم النظرية، ويرى سنجر وكوليجيان Singer & Kolligian ١٩٨٧م أنه زاد الاهتمام بالخبرة الذاتية في دراسة الشخص كما يشير كل من كونوي Conway ١٩٩٠م وبايرن وهيدلاند Birren & Hedland ١٩٨٧م إلى زيادة الاهتمام بدراسة السير الذاتية للأفـــراد في دراســة الشخصية(٤٨) .

ومن هذا المنطلق جاء اهتمامنا بدراسة السمات الشخصية للبطل العربي خالد بن الوليد ومحاولة التعرف على أبرز السمات التي ميزت شخصية هذا القائد ومنحتها القدرة القيادية والتي تمثلت في السمات الجسمية والعقلية المعرفية والسمات الاجتماعية والخلقية بالإضافة إلى سمات أخرى عامة, وباستخدام المنهج التحليلي وتتبع النصوص الواردة في كتب التاريخ تمكنا من تشخيص بعض السمات, وفي الوقت نفسه لاحظنا أن العوامل التي ساعدت على تكوين واكتساب تلك السمات تكمن في الظروف البيئية التي أحاطت شخصية خالد بن الوليد, ومحاولاته الشخصية في الاستفادة من المقومات المتوفرة في محيطه, وتعلم الدروس, حيث عود نفسه على تحمل المشاق والظروف الصعبة رغم امتلاكه كل مقومات العيش الرغيد, لكنه لم يرض بالخمول والكسل بل كان يتحدى المواقف ويواجه الصعاب ويحمل نفسه المتاعب من أجل السمو والارتقاء . وكان نتيجة ذلك أن اكتسب السمات التي

دفعت به إلى مقدمة الصفوف واجتياز أصعب الظروف وأعقدها, وخير دليل على ذلك قطع المفـازة من حد العراق إلى أول الشـام في خمس ليـال في عسكر معه .

وأخيراً, هناك كلمة حق — في صميم الدراسة أيضاً — يجب أن تسجل في حق هذا القائد البطل الذي قدم للعرب والإسلام الكثير من الإنجازات والمآثر البطولية, فاستحق لذلك المجد, وفي الوقت نفسه يدعونا هذا إلى التساؤل عن كيف يمكننا توظيف السمات المميزة لشخصية خالد بن الوليد في مجال تربية الجيل الجديد وتنشئة الأفراد ؟ وإذا كان خالد نموذجاً للقيادة فما هو السبيل للاقتداء بهذا النموذج الرائع ؟

وباختصار نقول أن هناك الحاجة إلى مزيد من الدراسات النظرية عن شخصية خالد بن الوليد للكشف عن معالم شخصيته وتقديم ذلك في صورة أطر نظرية ومن ثم البحث عن أساليب عملية لتطبيق نموذج قيمي مستمد من القيم التي تحلى بها بطل العروبة والإسلام . وعلينا أن نحتذي به ونجعله مثلنا الأعلى لكي نبدأ ونتواصل ونستيقظ .

د. جاجان جمعة محمد الخـالدي

جامعة الموصل — كلية المعلمين

الهوامش

١ — فهمي والقطان : علم النفس الاجتماعي, ص٢٠٤ .

٢ — زهران : علم النفس الاجتماعي, ص٢٦٩ .

٣ — زهران : المصدر نفسه, ص٢٧٤ .

٤ — Ency. P. 878-879 .

٥ — حقي, ألفت محمد : علم النفس المعاصر, ص٥٧ .

٦ — دافيدوف, لندال : مدخل علم النفس, ص٥٨٢-٦٠٧ .

٧ — زهران, حامد عبد السلام : علم النفس الاجتماعي, ص٢٧٠ .

٨ — العمري, إبراهيم : الإدارة, دراسة نظرية وتطبيقية, ص٣٧٣ .

٩ — زهران, حامد عبد السلام : مصدر سابق ص٢٧١ .

١٠ — أبي عمر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب, ص٤٢٩ .

١١ — العقاد, عباس محمود : العبقريات الإسلامية, ص٧٨٦ .

١٢ — العقاد, عباس محمود : المصدر نفسه, ص٧٨٧ .

١٣ — العقاد, عباس محمود : المصدر نفسه, ص٧٨٦ .

١٤ — العقاد, عباس محمود : المصدر نفسه, ص٧٨٧ .

١٥ — القلقشندي, نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب, ص٢٢٩ .

١٦ — سويد, ياسين : معارك خالد بن الوليد, ص١٣٠ .

١٧ — الغمري, إبراهيم : مصدر سابق, ص٣٧٤ .

١٨ — زهران, حامد عبد السلام, مصدر سابق, صص٢٧١ .

١٩ — الغمري, إبراهيم : مصدر سابق, ص٣٧٤ .

٢٠ — العقاد, عباس محمود : عبقرية خالد, ص١٧٠ .

٢١ — إبراهيم, محمد بن فضل : أيام العرب في الإسلام, ص٢٠٦ .

٢٢ — إبراهيم, محمد أبو الفضل, مصدر سابق, ص٢٠٩ .

٢٣ — البلاذري, أحمد بن يحيى بن جابر : كتاب فتوح البلدان, ص٢٩٧ .

٢٤ — إبراهيم, محمد أبو الفضل, مصدر سابق, ص١٥٠ .
٢٥ — البلاذري, أحمد بن يحيى بن جابر,مصدر سابق, ص١٣١ .
٢٦ — المصدر نفسه, ص١٤٤ .
٢٧ — الذهبي, شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان : سير أعلام النبلاء, ص٢٩٧ .
٢٨ — العقاد, عباس محمود : العبقريات الإسلامية, ص٨٠٥-٨٠٦ .
٢٩ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ, ص٤١١ .
٣٠ — العقاد, عباس محمود : عبقرية خالد, ص١٥٥ .
٣١ — العقاد, عباس محمود : العبقريات الإسلامية, ص٨٠٥ .
٣٢ — زهران, حامد عبد السلام, مصدر سابق, ص٢٦٩ .
٣٣ — حميـــد الله, محمد : مجموعة الوثائق السياسية من العهد النبوي, والخلافة الراشدة, ص١٣١ .
٣٤ — حميد الله, محمد, المصدر نفسه, ص٣١٧ .
٣٥ — الغمري, إبراهيم, مصدر سابق, ص٣٧٥ .
٣٦ — أبي عمر, يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البـر : الاستيعاب في معرفـــة الأصحاب, ص٤٢٨ .
٣٧ — العقاد, عباس محمود : عبقرية خالد, ص١٥٦ .
٣٨ — أبي عمر, مصدر سابق, ص٤٢٧ .
٣٩ — سويد, ياسين, مصدر سابق, ص١٤٣ .
٤٠ — زهران,حامد عبد السلام, مصدر سابق, ص٢٧٢ .
٤١ — الذهبي, شمس الدين, مصدر سابق, ص٢٦٥ .
٤٢ — العقاد, عباس محمود, العبقريات الإسلامية, ص٨٠٢ .
٤٣ — سويد, ياسين : معارك خالد بن الوليد, ص٢٩٢ .
٤٤ — العقاد, عباس محمود : المصدر نفسه, ص٧٧٩-٧٨٠ .
٤٥ — العقاد, عباس محمود : العبقريات الإسلامية, ص٧٨٣ .
٤٦ — الذهبي, مصدر سابق, ص٢٧٦ .
٤٧ — الذهبي, مصدر سابق, ص٢٦٤ .
٤٨ — شلبي, أحمد مهدي : النسبية النفسية — منحى معرفي فردي في دراسة الشخصية, ص١١٧ .

المصادر

١ – إبراهيم, محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي :

أيام العرب في الإسلام, ط ٢, دار إحياء الكتب العربية, ١٩٦١م .

٢ – ابن الأثير :

الكامل في التاريخ, ط ٢, دار صادر, بيروت, ١٩٦٥ .

٣ – أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر :

الاستيعاب في معرفة الأصحاب, (القسم الثاني), تحقيق علي محمد البجاوي, مكتبة نهضة مصر, القاهرة (ب. ت.) .

٤ – البلاذري, أحمد بن يحيى بن جابر :

كتاب فتوح البلدان, تحقيق صلاح الدين المنجد, مكتبة النهضة العربية, القاهرة .

٥ – حقي, ألفت محمد :

علم النفس المعاصر, منشأة المعارف, الإسكندرية, ١٩٨٠ .

٦ – حميد الله محمد :

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة, ط ٣, دار الإرشاد, بيروت, ١٩٦٩ .

٧ – دافيدوف, لندال :

مدخل علم النفس, ط ٢, دار ماكجروهيل, القاهرة, ١٩٨٣ .

٨ – الذهبي, شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان :

سير أعلام النبلاء, تحقيق : صلاح المنجد, معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية, بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .

٩ – زهران، حامد عبد السلام :

علم النفس الاجتماعي، ط ٤، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧ .

١٠ – سويد، ياسين :

معارك خالد بن الوليد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣ .

١١ – شلبي، محمد أحمد :

النسبية النفسية : منحى معرفي فردي في دراسة الشخصية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩١ .

١٢ – العقاد، عباس محمود :

العبقريات الإسلامية، ط ٢، منشورات دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨ .